أنور عبد الملك.. رحيل صامت في زمن صاخب

علي حسين

انور عبد الملك

"عشت حياة بلا حدود" هكذا أراد أن يلخص لنا المفكر المصري أنور عبد الملك حياته التي أسدل ستارها يوم الجمعة الماضي بعد جهاد فكري في سبيل بناء دولة مدنية، متخذاً من المنهج التنويري طريقاً في الدفاع عن الحرية والديمقراطية والتغيير الاجتماعي مما صاغ انجازه الفكري بالتنوع بين الفلسفة والأدب والترجمة والتراث، وقد خاض في جميع الميادين حركته الكبيرة المتواصلة المخلصة في صف التقدم والعدل والحرية، مقاوماً الظلم والتخلف والاستبداد ،وفي السجال الواقعي المستعر بين قوى التخلف والرجعية وقوى التقدم في عالمنا العربي، مجسداً نموذجاً ناصعاً للمثقف العضوي الذي لا يكتفي بإبداعه الفكري بل ينغمس كذلك في مجريات المواجهة على الأرض كي تختص الثقافة بالناس ويتحصن الناس بالثقافة.

ولعل من المفارقات الكبيرة أن يغيب الرجل الذي حارب طويلا مشروع الإسلام السياسي في وقت صعدت قوى هذا التيار لتتسلم السلطة في العديد من البلدان العربية كان أخرها مصر .

منذ صدور كتابه الأول "مدخل إلى الفلسفة" عام ١٩٥٧ أثار عبد الملك اهتمام المثقفين المصريين والعرب بموقفه الراسخ من القضايا الفكرية والسياسية والاجتماعية التي تواجه المواطن البسيط ..وظهر ذلك واضحا في كتابه الثاني.

نهضة مصر وهو رسالة الدكتوراه التي حصل عليها من السوربون .. إلا أن الكتاب الذي لفت الأنظار إليه كان دراسة عن علاقة الجيش بالمجتمع والذي صدر بالفرنسية عام ١٩٦٥ بعنوان المجتمع المصري والجيش وصدرت ترجمته العربية بعنوان مجتمع يبنيه العسكريون وقد اثار الكتاب الكثير من التساؤلات حول الدور الذي لعبه العسكر في المجتمع المصري بعد ثورة تموز ١٩٢٥ ويقال أن هذا الكتاب أثار إعجاب عبد الناصر شخصيا لكنه لم ينس للمؤلف انه كتب ذات يوم : "إن عبد الناصر بطل عظيم لكنّه دمّر الطبقة السياسية في مصر".

ثم توالت مؤلفات أنور عبد الملك والتي كانت في مجملها أشبه بمعارك فكرية، الهدف منها ترسيخ منهج معرفي قائم على الاهتمام بقضايا الإنسان، مؤمناً بان الثقافة لا يمكن لها إلا أن تكون جزءاً من النسيج الاجتماعي للمجتمع العربي، والتي كان أبرزها "الفكر العربي في معركة النهضة" و"نهضة مصر" و"ريح الشرق" و"تغيير العالم" و"الصين في عيون المصريين" و"المواطنة هي الحل"، و"في أصول المسألة الحضارية" و"من أجل إستراتيجية حضارية"، إضافة الى مقاله الأسبوعي في صحيفة الاهرام والذي ظل طوال أربعين عاما يحرص على نشره، وفيه كان يقدم مناقشات وتساؤلات عن ابرز القضايا التي تهم الإنسان العربي المعاصر.. وفي مجمل هذه الكتابات كان المفكر الراحل يقدم للقارئ سيرة ذاتية لنضال رجل آمن بفكرة الإنسان..

ومن هنا نجد صعوبة فصل مجمل ما تركه عبد الملك عن حياته.. إنها أكثر من تعبير شامل عن أفكاره ومفاهيمه.. إنها يومياته وتفاصيل هذه اليوميات.. وبقدر ما يلتصق العالم بالحياة وتجاربها بقدر ما يبتعد عن الوقوع في فخ الفلسفة الجامدة والثابتة، فالفلسفة لا يمكن لها أن تعاش كفكرة مجردة أو شكل من أشكال المفاهيم والقوانين المتعالية على الناس.. إنها جزء من حياة عامة وبهذا تكشف أعمال أنور عبد الملك عن انفراده في قراءة المشروع الثقافي العربي وحيوية قل نظيرها عند المفكرين العرب المعاصرين وتدل ايضاً على طبيعة تفكير هذا المفكر الذي لم يتخل عن ثوابته في أحلك الظروف وايضاً عن خطاب فكري حيوي يفتح باب التساؤل أمام العقل كي يدفع القارئ إلى متابعة كل جديد والتعرف على ابرز مدارس الفكر العالمي وإقامة علاقة متصلة، بمجمل المجالات المعرفية، كما أن هذه الكتابات تدل في الدرجة الأولى على انفتاح هذا المفكر على كل ما هو جديد وقد ساهمت هذه الحيوية في ابتعاد عبد الملك عن الجمود الفكري الذي اتصفت به كتابات الماركسيين الذين انتمى عبد الملك لهم في بداية الخمسينيات عن طريق معلمه الأول شهدي عطية الشافعي، أحد أبرز المفكرين الماركسيين المصريين والذي اغتيل في سجون عبد الناصر في الستينيات حيث التحق من خلاله بأحد التنظيمات الشيوعية، لكن ألقي القبض عليه لمدة عام قبل أن يهرب ويختبئ في منزل الفنانة الشهيرة تحية كاريوكا، ثم يخرج إلى فرنسا ليواصل دراسته في الفلسفة وعلم الاجتماع في عاصمة الأنوار في الخمسينيات لينطلق إلى آفاق أرحب مستمداً من أفكار رواد النهضة الحديثة في أوربا منهجاً فتح به باب الجدل والنقاش في مفهوم الدولة المدنية التي يتم من خلالها بناء مجتمع عادل منتج صاحب إبداع

وعلاقتها بالمدارس الفكرية المعاصرة..

ولم يكتف العالم بذلك بل ذهب ابعد من ذلك إذ حاول أن يقدم تعريفاً لليبرالية والاتجاهات الفكرية المعارضة لها فكان كتابه "مفاتيح إستراتيجية جديدة للتنمية، وتغيير العالم" أول كتاب عربي يناقش بموضوعية فكرية كيف أن النهضة والتنمية تتحققان بالتمسك بالشخصية القومية والاجتماعية والثقافية، وانتهاج السبل التي تنسجم مع هذه الشخصية، مثل نماذج فيتنام والصين والبرازيل، التي حققت النهضة والتنمية، حينما تمسك قادتها وشعوبها باستقلاليتها وهويتها.

كما جاء الإسهام الفكري الأبرز لعبد الملك ضمن علم الاجتماع، حيث قام بمراجعة بعض المفاهيم الليبرالية، وكذلك الماركسية الغربية، التي تتعلق بالدولة والأمة والقومية وغيرها.

ولعل قضية المثقف الوطني كانت من المحاور المهمة في فكر وحياة أنور عبد الملك السياسية والثقافية، وفي كتابه "الثقافة والفكر"، يعتبر أن التعددية بمفهومها السياسي من الشروط الأساسية لتكوين جبهة وطنية وتفعيل الحوار الوطني.

لقد امتازت كتابات عبد الملك بالمتابعة والجدية والاشتباك العقلي مع كل القضايا الفكرية المعاصرة وهي ميزة ظلت تلازمه حتى آخر ايام حياته إذا ما عرفنا أن عبد الملك كان قد نشر قبل وفاته بأيام مقاله الأسبوعي والذي رد فيه على دعاة الدولة الدينية حين أكد ان الدولة المدنية هي الحل، وهو المقال الذي ينتصر فيه للمواطنة وبناء الدولة المدنية بديلا عن دويلات الطوائف والأحزاب الدينية حيث كان يراهن فيه على أن المستقبل لدعاة دولة المواطنة .

وحيداً في باريس رحل أنور عبد الملك، في وقت تخوض فيه مصر معركتها لتحديد هويتها الاجتماعية والسياسية والثقافية.. يوغل في الصمت لكن آثار معاركه الفكرية وكتبه ودراسته ستظل شاهدا على حياة آمنت بأن الإنسان هو الغاية والوسيلة.

منطقة محررة

▪ نجم والي

عندما يتحوّل السعودي إلى عراقي على يد المحرر "الثقافي"

لنتخيل الجملة الآتية: "كلنا نعرف بأن روايات ألمانية كانت قد حظيت بانتشار شعبي، ربما أبرز هذه الروايات هي "كل شيء هادئ في الميدان الغربي" لأريش ريمارك، و"آل بودينبروكس" لتوماس مان، و"الأب غوريو" لبلزاك، ولنتخيل أن الجملة تلك كتبها محرر ثقافي يعمل في صحيفة ألمانية أو فرنسية أو بريطانية، تُرى ماذا سيحدث له؟ ومن غير المستبعد أبداً أن المحرر "الجاهل" هذا سيفقد وظيفته، خاصة إذا لم يقدم في اليوم الثاني أو بعد أيام عذراً أو توضيحاً للخطأ "السهو" الذي وقع فيه، رغم شكي بأن أحداً سيسامحه على هفوته الكبيرة تلك بتصنيفه للفرنسي بلزاك بكونه روائياً ألمانياً يصنف ما فعله فيها بالسهو. كلا. جريدة تحترم نفسها لن تسامح محررها هذا، ليس لأن من مبادئ العمل الثقافي أن يميّز المشرفون عليه على الأقل بين هويات الأدباء والفنانين الذين يكتبون عنهم كما ولا بدّ أن يعرفوا عناوين أعمالهم المتميزة، ليس لأن الصحيفة تخاف على سمعتها، تخاف أن تتحول ومعها محررها إلى أضحوكة في اليوم الثاني يتندر عليها محررو الصحف المنافسة لها، بل لمعرفتها أن خسارة سمعتها سيقود إلى خسارة في السوق، خاصة إذا كرر المحرر العامل فيها خطأه مرات ومرات (هذا يصح على محررين الأقسام الأخرى أيضاً!). لذلك ليس من غير المألوف عليه في الصحافة الغربية، أن الصحف تختار محرريها بعناية، خاصة أولئك الذين يتسلمون إدارة الأقسام، أغلبهم حملة شهادات جامعية عليا في الدراسات الأدبية، فضلاً عن الخبرة التي يتمتعون بها، يجيدون التحدث والقراءة بلغة أجنبية واحدة على الأقل. وعندنا؟ أقصد في البلدان الناطقة بالعربية وفي العراق على وجه التحديد؟ الثقافة والخبرة والشهادة الدراسية ليست هي المعيار في اختيار المحرر هذا أو ذاك. من يقرأ الصفحات الثقافية في الصحافة العربية وحتى تلك التي حملت صفة الدولية سيجد الكثير ما يؤيد هذا الكلام. "كما في روايتها حبل الأرجوحة (كذا!)"، كتب اللبناني محرر الصفحة الثقافية في أكبر الصحف العربية الدولية وهو يقصد رواية "أرجوحة التنفس" التي فازت عنها في حينه للتو الكاتبة الألمانية الرومانية الأصل هيرتا مولر. ليس من الغريب أن الصفحات الثقافية تلك تحتفي بالضغينة أكثر من احتفائها بالإبداع الجديد. محرروها جهلة لا يتابعون ما يُنشر من جديد. وضع كارثي حقيقة، وأكثره كارثية في العراق، وكأن الجهلة يتبادلون جهلهم حتى في نقاشاتهم أو في ردهم على بعضهم، أنا شخصياً (وباستثناء صفحتين رزينتين أو ثلاث) بطلت قراءة الصفحات الثقافية العراقية خاصة صفحات الجرائد الحكومية، كما فعلت قبلها مع صحافة الخليج، لكن صديقاً لي يصر بالبحث على كل ما يجعلني أتسلى وأضحك بصوت عال، أدمن على إرسال الإيميلات تلك التي اشتهر العراقيون بها في السنوات الأخيرة، بكل ما تحويه من سخرية وفكاهة سوداء، بعضها جعلني بالفعل أقهقه عالياً وبعضها الآخر أصابني بالإعياء، أحد تلك الإيميلات التي جعلت الضحكة تتيبس على فمي هو إيميله الأخير الذي نسخه لي عن عمود لمحرر صفحة ثقافية لصحيفة حكومية صادرة في بغداد يوم ٧ حزيران الماضي يشكو فيه محررنا البطل من عدم وجود رواية عراقية تشفي غليله أو (ربما تلغي جهله). سأكتفي بما ورد في مفتتح المقال: "كلنا نعرف بأن روايات عراقية قليلة كانت قد حظيت بانتشار شعبي ربما أبرز هذه الروايات هي "النخلة والجيران" ١٩٦٦- لغائب طعمة فرمان و"الرجع البعيد" – ١٩٨٠ لفؤاد التكرلي، ورواية "شرق المتوسط" عام ١٩٧٥ لعبد الرحمن منيف. سبب اختياري لهذه الروايات الثلاثة كونها جاءت بتماس حي مع واقع اجتماعي وسياسي معين وحملت هموما أقرب الى الواقعية الشعبية لدى فرمان والواقعية الاجتماعية والنفسية لدى فؤاد التكرلي والواقعية السياسية المرة لدى عبد الرحمن منيف".

عادة يذيل صديقي إيميله – النكتة الذي يرسله لي بتعليق. هذه المرة اكتفى فقط بكتابة عنوان للإيميل على شريط الإرسال فوق. صديقي كتب "مع تحيات الروائي العراقي عبد الرحمن منيف إلى زميله الروائي السعودي نجم والي". ولماذا لا؟ لماذا لا يذهب في نكتته إلى مداها وهو يرى تحول السعودي منيف على يد المحرر "الثقافي" الجاهل إلى روائي من العراق.

فنانو تونس يقاطعون مهرجان قرطاج احتجاجا على "تهميشهم"

تونس/رويترز

قرر فنانو تونس مقاطعة مهرجاني قرطاج والحمامات هذا العام احتجاجا على ما وصفوه بتهميش المبدع التونسي مطالبين وزارة الثقافة بمراجعة اختياراتها بينما قالت الوزارة ان "تونسة" البرامج لن تكون على حساب الذوق الفني.

وجاء قرار المقاطعة الذي اعلنته نقابة المهن الموسيقية بعد كشف وزير الثقافة مهدي المبروك عن برنامج الدورة الثامنة والأربعين من مهرجان قرطاج احد اعرق التظاهرات الفنية في العالم العربي والذي تضمن ست حفلات تونسية من مجموع حوالي ٣٠ عرضا في الدورة الحالية من المقرر ان تفتتح في الخامس من يوليور تموز المقبل.

وقال بيان لنقابة المهن الموسيقية "بعد ان تأكد عدم استيعاب وزارة الثقافة ضرورة احترام المبدع التونسي بإيلائه المكانة التي يستحقها وباعتبار ان البرمجة المعلن عنها لا ترتقي الى تطلعات شعب وجب مصالحته مع ثقافته.. فإن النقابة قررت مقاطعة هذه المهرجانات."

وساند بعض المغنين قرار المقاطعة الى حين تراجع الوزارة عن البرنامج الحالي الذي قالوا انه يعطي الاولوية للاجانب ولاهدار المال العمومي مقابل حضور باهت للفنان التونسي.

وتتضمن الدورة الحالية لمهرجان قرطاج مشاركة عدد من نجوم دول عربية أخرى من بينهم وائل جسار وراغب علامة ومرسيل خليفة ونجوى كرم ورامي عياش ونصير شمة وهاني شاكر واصالة نصري وكاظم الساهر والفا بلوندي ولويز ماكونب.

وقال وزير الثقافة انه ليس من الضروري شحن المهرجان بالتونسيين حتى وان لم تكن لديهم انتاجات مميزة ، مضيفا ان الاولوية ستكون للابداع الفني بغض النظر عن الجنسيات.

وتطالب نقابة المهن الموسيقية بحضور تونسي لا يقل عن ٥٠ بالمئة من اجمالي حفلات قرطاج ردا لاعتبار الفنان التونسي الذي قالوا انه يتعين ان يحظى بمكانة ارفع في بلده.

وردا على قرار المقاطعة قال مسؤول بالمهرجان لرويترز ان المهرجان ليس هيكلا تشغيليا للفنانين وان هذه المهرجانات مدعومة من الوزارة وان لها وحدها حق اختيار البرامج حسب المعايير الفنية مثلما هو الحال في مهرجانات عالمية اخرى كمهرجان بعلبك الذي قال انه لن يستضيف اي فنان لبناني هذا العام.

مراجعات

مسألة العراق.. المصالحة بين الماضي والمستقبل

مازن لطيف

صدر عن الدار العربية للعلوم ناشرون- بيروت ٢٠١٢ كتاب (مسألة العراق.. المصالحة بين الماضي والمستقبل)، للكاتب والصحافي العراقي مصطفى الكاظمي.

تناول فيه تجربة النضال السياسي ضد النظام الدكتاتوري في العراق بأبعادها المختلفة، ووثق الجرائم والتجاوزات التي حفل بها العهد السابق، فضلا عن محاولة رسم آفاق المستقبل في ضوء التجربة القاسية التي عاشها العراق والتي دفع الكثير من العراقيين حياتهم وكرامتهم ومستقبلهم من اجل التخلص منها.

يذكر الكاظمي في كتابه ان العرق كان البداية، وهو من دشن "الربيع العربي" قبل سنوات من تفجره، بل هو الزهرة الاولى في ربيع العرب. وهو اول من حقق المصالحة بين الموروث الثقافي العربي والديمقراطية في زمن الدكتاتوريات العربية رغم كل النواقص في ديمقراطيته الفتية.

وان عام ٢٠٠٣ أدخل العراق، ومعه المنطقة كلها في تاريخ جديد، وإن العراق بتعبير الكاظمي فتح حسابا في مصرف الحرية، فتح ايضا حسابا للعرب جميعا في المصرف اياه، وليس صحيحا ان "ثورة الأرز" في لبنان هي التي اطلقت "الربيع العربي"، وليس صحيحا كذلك ان ثورة تونس كانت هي البداية، ذلك ان انتشال العراق من براثن الديكتاتورية والفاشية العسكرية، هو فعل تراكم نضالي عراقي قبل ان يكون نتيجة تدخل عسكري خارجي، والارادة الشعبية والسياسية العراقية هي التي صنعت هذا التغيير عبر الاستعانة بقوة غير عراقية. وما حصل في تونس ومصر وليبيا واليمن والبحرين، وما يمكن ان يحصل في بلدان عربية اخرى، على امتداد السنوات اللاحقة، ذو جذور عراقية قبل ان يكون ثورة تقنية ساعدت على تحقيقها التواصل الاجتماعي او فعلا خارجا عن ارادة الشعوب العربية.

ويذكر الكاظمي ان الديمقراطية في العراق لا تنطلق بالضرورة من القيمة السياسية والخلقية والحضارية للديمقراطية، بل من الظروف التي مر بها العراق من لحظة التأسيس الى يومنا هذا، حيث عاش أسوأ مراحله التاريخية على كل الصعد الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية. والديمقراطية كما يراها الكاظمي هي البديل الضروري عن الديكتاتورية في العراق المقبل، لاننا نريد عراقا للجميع، وليس لطائفة معينة او قومية مسماة او حزب مشخص، وعراق بهذه المواصفات لا يتحقق الا اذا كان للصوت الحر الدور الرئيس في تصميم القرار السياسي الاقتصادي والقانوني.

ويصف الكاظمي دكتاتورية النظام العراقي السابق بانها أسوأ الديكتاتوريات التي شهدتها منطقة الشرق الاوسط، وقحة، سادية،متخلفة، غبية، متخبطة. ويحلل الكاظمي شخصية صدام الديكتاتورية منها ظاهرة الألقاب وظاهرة الملابس وظاهرة الادعاء.

في نهاية كتابه يدعو الكاظمي الى وضع العراق في طريق الحداثة، التي يعتبرها نهجا حضاريا يتعارض مع نهج التقليد، وهي حصيلة تطور وتحول، عبر مجموعة من الصراعات والنتاجات الفكرية، وهي لا ترتبط بمكان او زمان، بل بالعقلانية والديمقراطية، وهي قواعد اساسية في بناء مجتمع معاصر.

كتاب"مسألة العراق" قراءة للماضي والمستقبل العراقي، برؤية الكاتب العراقي المعروف مصطفى الكاظمي ذي التاريخ الطويل في مقارعة الدكتاتورية الصدامية، فقد عارض النظام، وله خبرة في مجال توثيق الشهادات وأرشفة الوثائق المرتبطة بالممارسات القمعية، ألّف الكثير من الكتب وأهمها "انشغالات إنسانية" الذي طبع في لندن وتم اختياره من قبل التحاد الأوروبي كواحد من أفضل الكتب التي ألفها ادباء لاجئون.

قراءة كتاب "مسألة العراق" توضح لنا ما عاشه العراق إبان الحكم الدكتاتوري من قمع وقسوة، وتحوله الى عراق ديمقراطي قوي، اصبح أنموذجا للتطوير المرتجى في البنية العربية الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.